

الدبلوماسية: مقدمة في النشأة والتحويلات

Diplomacy: Introduction to the Genesis and Transformations

منصور المرزوقي

أستاذ العلوم السياسية المشارك

معهد الأمير سعود الفيصل للدراسات الدبلوماسية - المملكة العربية السعودية

Dr.Almarzoqi@ids.gov.sa

تاريخ النشر: 2025/06/04

تاريخ القبول: 2025 / 04 / 13

تاريخ الارسال: 2025/03/ 10

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى إعطاء مقدمة مختصرة لأبرز تعاريف الدبلوماسية، واستعراض النشأة وأهم التحويلات التي طرأت على مفهوم وممارسة الدبلوماسية، وكذلك التحديات الناجمة عن هذه التحويلات. بالإضافة يطرح هذا البحث تعريفاً مختصراً للدبلوماسية وكذلك توصيفاً لثلاث مستويات لعنصر "التراكم" في السلوك الدبلوماسي لدى دولة ما. وإلى جانب وجهة النظر الغربية حول تاريخ نشأة وتطور الدبلوماسية، تستعرض هذه المقالة جوانب تاريخية من وجهة نظر غير غربية، من خلال الإشارة إلى أحداث تاريخية من العالم القديم والتطرق إلى بعض الممارسات الدبلوماسية العربية. كما يناقش البحث بعض التحديات الناجمة عن التحويلات المستمرة لمفهوم وممارسة الدبلوماسية، ومن أبرزها تحدي التكيف مع التحويلات، وكذلك الفجوة بين النظرية والتطبيق في الدبلوماسية. وتكمن أهمية هذه المقدمة المختصرة في كونها جزء من أعمال المراجعة الدورية لسياق ومفهوم وممارسات الدبلوماسية والتي يستوجب حقل الدراسات الدبلوماسية القيام بها بشكل دوري.

كلمات مفتاحية: الدبلوماسية. نشأة الدبلوماسية. مفهوم وممارسات الدبلوماسية. العمل الدبلوماسي. الدبلوماسية الغربية. الدبلوماسية العربية. العالم القديم. الحضارة العربية. الغرب.

Abstract:

This study seeks to provide a brief introduction to the most prominent definitions of diplomacy, review the origins and major transformations of the concept and practices of diplomacy, as well as the challenges resulting from these transformations. In addition, this paper offers a brief definition of diplomacy and a description of three levels of the "accumulation" element in a state's diplomatic behavior. Besides the Western perspective on the history of the origins and development of diplomacy, this article reviews historical aspects from a non-Western perspective by citing historical events from the ancient world and reviewing some Arab diplomatic practices. The paper also discusses some of the challenges resulting from the ongoing transformations in the concept and practice of diplomacy, most notably the challenge of adapting to transformations, as well as the gap between theory and practice in diplomacy. The importance of this brief introduction lies in being part of the much wider efforts of periodic reviews required by the field of diplomatic studies of the context, concept, and practices of diplomacy.

Keywords: Diplomacy. Origins of diplomacy. Concept and practices of diplomacy. Diplomatic work. Western diplomacy. Arab diplomacy. The ancient world. Arab civilization. The West.

*المؤلف المرسل

مقدمة

عند النظر في مصطلح "الدبلوماسية"، نلاحظ ثغرةً مستمرة في فهمنا للمصطلح ما أن تُشارف الجهود القائمة على سدها حتى تطرأ مستجدات تفتح ثغرةً أخرى. وهذا يعود للتحولات المستمرة في البيئة الدولية والتي تنعكس على مفهوم وممارسة الدبلوماسية. وهكذا، فإن فهم الدبلوماسية هو سباقٌ بين فراغٍ ومحتوى: ما أن يُشارف المحتوى على ملئ الفراغ حتى تنشأ دائرة فراغٍ جديدة. بهذا الشكل، نحتاج إلى عمل منظم ودوري لسد الثغرات المستجدة باستمرار. هذه الثغرة تتمثل في التحول المستمر لمفهوم وممارسة الدبلوماسية من ناحية، ومحاولات التكيف بالممارسة وبالتأطير النظري من ناحية ثانية، واستعراض التحديات ومحاولات معالجتها من ناحية ثالثة. وهذه ثغرة دائمة، لا أمل في زوالها.

ولذا، يبرز سؤال رئيسي: هل يمكن سد هذه الثغرة؟ وكيف؟

الطريقة المثلى للتعامل مع هذه الثغرة هي المراجعة والمعالجة الدورية. ويوجد أكثر من سبيل وطريقة للمراجعة والمعالجة، أحدها طرح مقدمة مختصرة، وهذا هو الغرض الأساسي من كتابة هذا البحث. وتسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الهدف المتمثل في طرح مقدمة مختصرة لنشأة وتحولات الدبلوماسية من خلال الإجابة على الأسئلة التالية:

1- ما هي أبرز التعاريف المطروحة للدبلوماسية؟

2- ما هي أبرز ملامح نشأة وتطور الدبلوماسية عبر العصور؟

3- ما هي أبرز التحديات الناجمة عن تحول مفهوم وممارسة الدبلوماسية؟

بالإضافة، تعتمد هذه الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي الذي يقوم على جمع المادة العلمية ونقدها للوصول إلى نتائج علمية سليمة، وكذلك على تتبع التسلسل التاريخي للظاهرة؛ وذلك بالاستعانة بالوثائق والمصادر المختلفة، وكذلك الدوريات المحكمة، والصحف والمجلات التي تخدم موضوع الدراسة. كما تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على تحليل واقع الظاهرة موضوع البحث وتحليل أسبابها، وطبيعة الآثار المترتبة عليها. كما تعتمد هذه الورقة على الدراسات السابقة التي تناولت موضوع الدراسة من الجوانب ذات الأهمية بالنسبة لها.

أولاً: تعريف الدبلوماسية

تطرح أدبيات الدراسات الدبلوماسية والعلاقات الدولية بشكل عام عدة تعريفات إلى جانب وجود مقولات مشهورة لشخصيات سياسية بارزة. ومن الأهمية بمكان استعراض أبرزها. كما تطرح هذه الورقة تعريفاً للدبلوماسية مقترحاً، إلى جانب ملاحظة على ما تسميه الورقة "عنصر التراكم" في الممارسات الدبلوماسية لدولة ما.

1. أبرز التعاريف الموجودة في الأدبيات

مصطلح "دبلوماسية" هو تعريبٌ للمفردة الأجنبية (بالإنجليزية: diplomacy، والفرنسية: diplomatie، على سبيل المثال). وهذه بدورها مشتقة من مفردة (diploun) في اللغة اليونانية، والتي تعني "يطوي"¹. وهذا يشير إلى وثيقة الرسالة التي يحملها الرسول من مرسل وضع ختمه ورسمه على تلك الورقة المطوية. ثم أطلق الرومان مفردة (diplom) على وثيقة السفر المختومة والمطوية². وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر أُطلق مصطلح "دبلوماسية" على الأعمال المتعلقة بالعلاقات الدولية والمشتغلين بها. ولم يكن المصطلح في هذه الفترة التاريخية مستقراً من حيث وضوح الدلالة والمعنى، بل كان يتأرجح بين عدة إشارات، بعضها يركز على الحرب والسلم، والآخر على التجارة، وهكذا³.

يقول بعض الخبراء أن دلالة مصطلح "دبلوماسية" استقرت على يد البرلماني البريطاني-الإيرلندي إدموند بيرك في عام ١٧٩٦م. وهي دلالة تشمل التواصل بين الدبلوماسيين ومع المسؤولين في الدول الأخرى بهدف الوصول لاتفاقيات، وتوضيح وشرح نوايا، وبناء الثقة والنوايا الحسنة، بالإضافة إلى بعض الأنشطة السرية مثل جمع المعلومات. وقد كان السياسي والمفكر الفرنسي الشهير الكاردينال دو ريش ليو يطلق على ما سبق مصطلح "التفاوض"⁴.

يوجد رأي سائد مفاده أن الدبلوماسية فن وعلم⁵. هي فن لأنها تتطلب مهارات وقدرات شخصية يجب أن تتوفر في الممارس للعمل الدبلوماسي لكي يصبح دبلوماسي ناجح. ومثال هذه المهارات والقدرات الشخصية هو الاطلاع المعرفي والثقافي الواسع، حدة الذكاء، مستوى انتباه عالي، سرعة البديهة، الفصاحة والبيان، الحلم واللين والسكينة، وهلم جراً. وهي علمٌ لأن لها أطر معرفية وقواعد يمكن دراستها والتوسع في البحث فيها، وجوانب قانونية واقتصادية وسياسية وإعلامية وثقافية يمكن متابعتها وتحليلها بشكل علمي ومنهجي منظم.

يصف معاوية بن أبي سفيان السياسة بالشعرة التي تتميز بالدقة والمرونة والحرص على استمرار التواصل والعلاقات وعدم انقطاعها⁶ (وهو مفهوم عام في ذلك الوقت يشير في جوانب مهمة منه إلى ما نعرفه اليوم بالدبلوماسية)، وهذا أحد مظهرات الدبلوماسية كفن. ويعطي ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير محمد بن سلمان تعريفاً عملياً للدبلوماسية ودورها في السياسة الخارجية السعودية بالقول إنها توظيف للتواصل والتعاون في السعي لتعزيز الأمن والسلم الإقليمي والدولي من خلال بذل الجهود للوصول إلى الحلول السياسية للأزمات، والسعي المشترك إلى مستقبل أفضل⁷.

ويقول جيوف بيرج بأن الدبلوماسية هي في كنهها نشاط سياسي ومكون رئيسي من مكونات القوة الوطنية للدولة. وغرضها الأساسي هو تمكين الدولة من تحقيق أهداف سياستها الخارجية دون اللجوء للقوة أو الدعاية السياسية (البروباغاندا) أو القانون الدولي. ويجادل بأن الدبلوماسية ليست حكراً على الدبلوماسيين، بل إن المسؤولين الآخرين في الدولة (من خارج وزارة الخارجية والملك الدبلوماسي) يقومون بالعمل الدبلوماسي، وكذلك

الأشخاص غير الرسميين (ولكن تحت إشراف المسؤولين في الدولة وتوجيهاتهم). ويمكن ممارسة العمل الدبلوماسي من خلال قنوات أخرى غير سفارات وبعثات الدولة في الخارج.⁸ ويقول بعض الخبراء أن الدبلوماسية هي إدارة التغيرات التي تطرأ بشكل مستمر على الساحة الدولية، والمحافظة على النظام الدولي، من خلال التفاوض والإقناع، في خضم التغيرات. والعمل الدبلوماسي للدولة يعكس مكانها في توازن القوى بالمقارنة مع الدول الأخرى من ناحية، ويعمل على تعزيزه وتنميته من ناحية أخرى.⁹

ومن بين التعريفات الأخرى تعريف ينظر إلى الدبلوماسية على أنها: "الإدارة السلمية للعلاقات الدولية"¹⁰ من خلال التفاوض والمباحثات. ويشير تعريف آخر إلى أن الدبلوماسية هي: "الحوار السلمي والتفاعل بين الوحدات السياسية"¹¹، غير أن هذين التعريفين يتجاهلان "دور الدبلوماسية في أعمال الاستعدادات للحرب، مثل بناء التحالفات، وتضليل الخصوم والمحايدين"¹².

وتعني الدبلوماسية، في تعريف آخر، إدارة العلاقات بين الدول ذات السيادة من خلال المسؤولين المقيمين في الداخل أو الخارج، ويكون هؤلاء إما أعضاء في السلك الدبلوماسي لدولهم أو دبلوماسيين مؤقتين. وهكذا تشمل الدبلوماسية تمركز مبعوثين في دولة ما كممثلين فيها أو في المنظمات الدولية المتواجدة فيها. لكن العمود الفقري للدبلوماسية كان على مدى خمسة قرون يتمثل في إيفاد بعثات دبلوماسية إلى دول أجنبية، ولا تزال هذه هي القاعدة إلى حد كبير.¹³

والدبلوماسية بحسب تعريف آخر هي: "جانب يتمتع بالأولوية ضمن أنظمة عامة لجمع المعلومات، وللممثل، وللمفاوضات"¹⁴. التمثيل هنا يشير إلى تمثيل كيان سياسي لدى كيان سياسي آخر، والمقصود بالمفاوضات هو ما يتم من مباحثات واقتراح مقايضات بين كيانات سياسية متعددة. واستخدام مفردة "جانب" تشير إلى وجود كيان له عدة جوانب (مثل كيان الأنظمة العامة)، مما يعني أن الدبلوماسية هي جانب من بين جوانب أخرى تقوم بجمع المعلومات وتقوم بالتمثيل وتقوم بالمفاوضات (في إشارة إلى أجهزة أخرى، مثل الاستخبارات التي تقوم بجمع المعلومات). غير أن جانب الدبلوماسية يتمتع بأفضلية وأولوية على بقية الجوانب. ويقول رؤول جينيه أن الدبلوماسية هي فن تمثيل الحكومة ورعاية مصالح البلاد لدى الحكومات الأجنبية وتوجيه المفاوضات والسعي لتطبيق القانون في العلاقات الدولية.¹⁵

ويعرف إيان هورد الدبلوماسية بقوله:

"تتميز الدبلوماسية عن المفاوضات الخاصة والعمل السري، وتتضمن عرض مصالح الدولة وأفعالها أمام المجتمع الدولي. ويشمل هذا العرض مجموعة واسعة من الأنشطة، بما في ذلك التفاعلات الرسمية مع الدول الأخرى بشأن المعاهدات والاتفاقيات، والتصريحات العامة للمتحدثين الرسميين لشرح تصرفات الدولة، والمواقف المتخذة في المحافل الدولية مثل الجمعية العامة للأمم المتحدة، من بين العديد من المظاهر الأخرى.

تشارك هذه الأنشطة جميعها في سِمَتين مشتركتين:

أولاً، بشكل أو بآخر، جميعها منتجات أولية أو منتجات ثانوية لسلوك الدولة مما يعني أن الدبلوماسية مرتبطة بشكل أساسي بأعمال الدولة؛

وثانياً، تتضمن جميعها وضع سلوك الدولة ضمن الإطار الذي ينص عليه القانون الدولي¹⁶.

بالإضافة، ترتبط الطريقة التي نفكر بها في الدبلوماسية بما نمارسه في العمل الدبلوماسي¹⁷. ولذلك هي مفهوم يتغير معناه تبعاً للسياق، وسلوك وتصورات الممارسين للعمل الدبلوماسي، مع ما يترتب على ذلك من آثار بعيدة المدى على المساحات أو الممارسات أو الجهات الفاعلة أو المعارف التي يتم الاعتراف بها باعتبارها دبلوماسية.

كل ما سبق يدل على التحول المستمر لتعريف وممارسات الدبلوماسية من جهة، وعلى الحاجة المستمرة لمراجعة المفهوم والممارسات من جهة ثانية، ومحاولة مواكبة هذه التحولات بالتأطير النظري وتكيف الممارسات من جهة ثالثة.

2. تعريف مقترح للدبلوماسية

أُعرِفَ الدبلوماسية على أنها عملية إدارة لـ "التواصل التفاوضي" (negotiated communication) مع الفواعل الخارجيين، بالاعتماد على أمرين: الأول هو الوعي العميق بالذات حضارياً وثقافياً وتاريخياً وبالمصالح الوطنية، والثاني هو المستوى المعرفي الموثوق بالآخر ومصالحه وسياقه السياسي والثقافي والتاريخي.

هي ليست عملية إدارية، وإنما عملية إدارة. فالعملية الإدارية هي مجموعة من الإجراءات البيروقراطية والقانونية التي يجب على الموظف الدبلوماسي اتباعها، ودوره يكاد ينحصر على فعل "الاتباع". في المقابل، الإدارة هي مزيج من المهارات الشخصية والأعراف والقواعد لسياق العمل بالإضافة إلى الإجراءات البيروقراطية والقانونية للعملية ذاتها بعد أن بث فيها شيئاً من روحه. وهذا هو جانب الفن في الدبلوماسية.

وما أعنيه بـ "التواصل التفاوضي" هو عملية تواصل يقوم بها الدبلوماسي بالتوازي مع عملية تكيف يقوم بها وتكيف للأدوات التي يمتلكها لخدمة أهدافه، في نفس الوقت الذي يراقب فيه الطرف المقابل ويجتهد للتكيف مع سياقه وأهدافه عبر التعاطي الإيجابي والمرن معه، من ناحية. ومن ناحية أخرى، يسعى الدبلوماسي إلى العمل بشكل مستمر على تشجيع الطرف المقابل على القيام بعملية تكيف وتعاطي مرنة وإيجابية. وكل هذا يتم في إطار يخدم الغاية من التواصل.

لكن هذا النوع من التواصل لا يتم إلا بالاستناد إلى وعي عميق بالذات حضارياً وثقافياً وتاريخياً وبالمصالح الوطنية، بالإضافة إلى مستوى معرفي موثوق بالآخر ومصالحه وسياقه السياسي والثقافي والتاريخي. كما أن إدارة عملية التواصل التفاوضي تتطلب مستوى ثقافي عالي ومهارات أدبية ومهارات تواصل ومهارات التفكير النقدي والربط والتحليل وقدرات عالية على الإقناع والتعامل الإيجابي مع نقاط الخلاف. وهذه مهارات

يمكن أن أطلق على الدبلوماسي الذي يمتلكها عبارة "الدبلوماسي الأريب" (فالأريب هو البصير بالأمور ذو الدهاء والفتنة والقادر على التعبير بفصاحة وبيان عما في خاطره).

وعند النظر في التعريف الذي طرحته أعلاه، من الأهمية بمكان التفكير في السياقات المحتملة لتبنيه وتطبيقه. فكل دولة سلك دبلوماسي يمتاز، فيما يمكن أن أسميه بـ "المرحلة السياقية" (phase contextual)، بعدة صفات تمثل مجموع الممارسات والمقاربات السائدة في لحظة ما والتي تطبع سلوك الدبلوماسي في تلك اللحظة. مثلاً يمكن القول بأن الدبلوماسية الفلانية (نسبة لهذه الدولة أو تلك) هي كذا وكذا. وقد تكون مزيجاً من الصفات الإيجابية والسلبية. وهذا ما يمكن أن أسميه بـ "الطابع الدبلوماسي". لكن، إذا كان هذا الطابع له مرجعيات ثقافية تُعطي تلك الصفات والسمات فرصة العودة المتكررة لأن تكون مُعاشة ومُمارسة من جديد، بشكل دوري، بحيث تؤثر في الأجيال الدبلوماسية المتعاقبة، فنحن أمام ما أسميه بـ "الثقافة الدبلوماسية". وإذا كانت المرجعيات الثقافية ودورها في تشكيل الثقافة الدبلوماسية تنتظم في بُنى نظرية ومفاهيمية تشكل هي بدورها موضوع جدل نظري ومفاهيمي وفكري عميق لدى النخب الدبلوماسية في تلك الدولة على مر الأجيال، فنحن أمام ما أسميه بـ "المدرسة الدبلوماسية". في المحصلة، لدينا ثلاث مستويات يمكن أن نرتب الممارسات الدبلوماسية المتراكمة لدولة ما بناءً عليها: الطابع الدبلوماسي، والثقافة الدبلوماسية، والمدرسة الدبلوماسية. وهذه مستويات تختلف من حيث عراقة التجربة، والوعي، وعمق الطرح الفكري والجدل المفاهيمي وكذلك الوزن الفكري للنخب الدبلوماسية.

ومن الناحية البنوية، فإنه من المستبعد لدي أن يكون التعريف الذي طرحته أعلاه متبعاً إلا في إطار وجود مدرسة دبلوماسية. فمن المستبعد أن يقوم السلك الدبلوماسي، الذي يفتر إلى "ثقافة دبلوماسية" مستقرة وجدل نظري ومفاهيمي وفكري متعمق حول مضامين هذه الثقافة الدبلوماسية، بوضع آليات وإجراءات تحفز الممارس للعمل الدبلوماسي، بشكل منظم، لأن يسعى لامتلاك وعي عميق بالذات حضارياً وثقافياً وتاريخياً وبالمصالح الوطنية، بالإضافة إلى مستوى معرفي موثوق بالآخر ومصالحه وسياقه السياسي والثقافي والتاريخي. هذا الافتقار يمكن أن أسميه بـ "القصور البنوي" للبنية التحتية الدبلوماسية في دولة ما.

بالإضافة، أحد أبرز المخاطر التي يواجهها الممارس للدبلوماسية اليوم هو أن تتحول ممارسته للدبلوماسية من عملية إدارة إلى عملية إدارية: اختزال العمل الدبلوماسي في مجموعة من العمليات والإجراءات الإدارية. وهذا يمكن أن يكون بسبب أحد أمرين. الأول أن يكون الممارس للعمل الدبلوماسي يفتر للوعي الحضاري والثقافي والتاريخي ولمزيج المهارات اللازمة (سواءً لكون الفرد يفتر إلى الاستعداد النفسي والذهني للوصول لمستوى "الدبلوماسي الأريب" أو بسبب القصور البنوي للبنية التحتية الدبلوماسية). وهذا يجعله يركن إلى العمل الوحيد المتاح: اختزال العمل الدبلوماسي في الجوانب البيروقراطية الصرفة.

والثاني أن يكون بسبب غياب "شبكة الأمان". فالممارس الدبلوماسي يحتاج أن يشعر بمستوى معين من الأمان على مصالحه المعنوية والمادية لكي يبقى متحفزاً لجمع قواه وبذل الجهود واتخاذ زمام المبادرة للمحافظة على ممارسته للدبلوماسية ومنعها من التحول من عملية إدارة إلى عملية إدارية. فإذا افترق للأمان، أحجم عن المبادرة واكتفى بالقيام بالحد الأدنى من العمل، لكي يضمن عدم التعرض للمساءلة أو العقوبة. وهذا يرفع من احتمالات التردد في اتخاذ القرار والتأخر في القيام بالإجراءات اللازمة، والاجتهاد في التخلص من أي مسألة تُحال إليه ودفعها عن نفسه إلى غيره، بحيث يخرج من "دائرة المساءلة" أو "دائرة الشبهة" حسبما يتصور. ولذلك، فإن من أهم سمات القائد في العمل الدبلوماسي هي قدرته على خلق شبكة أمان لمروءسيه دون التفريط في ثقافة الالتزام بالإجراءات السليمة من ناحية، والحفاظ على الحقوق المعنوية والمادية لفريقه من ناحية أخرى. فإذا فشل في ذلك تحول من قائد إلى مجرد مدير.

ثانياً: محطات في تحولات مفهوم وممارسة الدبلوماسية

لاتزال الساحة الدولية تمر بتحويلات وتغيرات هائلة باستمرار، منذ نشأة العلاقات الدولية والدبلوماسية وحتى الآن. هذه التغيرات تمس جوانب مهمة تتعلق بالمجتمع وطبيعة الكيان السياسي (المدينة-الدولة كما في العراق القديم، مثلاً)، والنظام الدولي، والسياسة والاقتصاد بشكل عام. وتترجم هذه التغيرات إلى تحولات على مستوى مفهوم وممارسة الدبلوماسية. ليس من الممكن لنا أن نتتبع جميع هذه التحويلات بشكل جامع ومانع، لضيق المساحة، ولذلك سكتفي هذه الدراسة باستعراض بعض محطات التحول الرئيسية.

3. الدبلوماسية كأداة تواصل لأغراض محدودة

نشأت الدبلوماسية في العالم القديم (وكان هذا سابقاً من الناحية التاريخية لبروز ما عُرف لاحقاً بـ "الغرب" ونشأة الدول الغربية) بفعل الضرورة، للتواصل بين الكيانات السياسية في أشكالها القديمة والتي كانت سابقة لشكل "الدولة-الوطنية" ومختلفة عنه. مصطلح "الدولة-الوطنية" يشير إلى جماعة من الناس يعتقدون بالانتماء إلى أصل واحد ولهم مشتركات (مثل اللغة) ويتواجدون في مساحة جغرافية معرفة بشكل واضح ويشرف عليها كيان سياسي ذو سيادة وشرعية¹⁸. ولكن عند نشأة الدبلوماسية، مصطلح "الدولة-الوطنية" لم يكن موجوداً ومفهوماً بهذا الشكل، بل كان يطلق على مجموعة من الكيانات الموجودة بشكل متوازي مسميات من قبيل "مملكة" و "إمبراطورية"، دون أن تتوفر فيها صفات المملكة أو صفات الإمبراطورية كما نعرفها نحن اليوم. بل كانت مجموعة أجزاء موجودة بشكل متوازي، ويطلق عليها مجتمعة مسمى "مملكة"، وتقع تحت تأثير كبير من قوة فرد أو دائرة ضيقة من الأفراد، وبشكل غير منظم وغير متجانس من نواحي عديدة (مثل النواحي الثقافية والإدارية والسياسية والاقتصادية)¹⁹.

في هذا السياق، نشأت الحاجة للتواصل بين هذه الكيانات السياسية لأغراض السلم أو لأغراض الحرب أو لأغراض التجارة أو لأغراض اقتسام الموارد الطبيعية (مثل الماء). وأقدم اتفاقية بين كيانين سياسيين وصلت

إلينا بشكل موثوق كانت الاتفاقية بين الدولة-المدينة لكش (Lagash) والدولة-المدينة أوما (Umma) في بلاد ما بين النهرين (العراق القديم). فبعد نشوب أزمة أمنية بين الجانبين سببها الخلاف على اقتسام موارد المياه، احتكما إلى طرف ثالث وهو الدولة-المدينة كيش (Kish) وحاكمها يُدعى مسيليم (Mesilim). وقد حكم مسيليم بين الطرفين، وحلفوا بأغلظ الأيمان (كلّ حلف بآلهته التي يؤمن بها). حُفظت بنود الاتفاق في نقشٍ مسماري، نُقش في حوالي العام ٢٥٥٠ قبل الميلاد (أي قبل ٤٥٠٠ سنة)، والذي كان موضوعه تخليد انتصار جيش لكش على جيش أوما وفرض تطبيق بنود الاتفاق²⁰. كانت أفعال التواصل بين لكش وأوما، وكذلك تواصل الطرفين مع الطرف الثالث كيش الذي انتخباه حكماً في نزاعهما، هي كلها أفعال دبلوماسية تحمل تعبيراً وشرحاً لوجهات نظر، وتفاوض، ووصول لمعاهدات، حتى وإن لم تحمل هذه الأفعال مسمى "دبلوماسية" في ذلك الوقت.

ومن الأمثلة القديمة على أسبقية مفهوم وممارسات الدبلوماسية على مصطلح الدبلوماسية نفسه اتفاقية قادش (Kadesh) عام ١٢٥٩ قبل الميلاد تقريباً، بعد معركة قادش عام ١٢٧٤ قبل الميلاد، بين مصر القديمة والمملكة الحيثية في بلاد الأناضول. وكان الطرفان يتصارعان على الهيمنة في العالم القديم في الشرق الأوسط²¹. يرجح باحثون أن تعرض مصر والمملكة الحيثية للغزو من قبل ما سُمي في الكتابات والنقوش المصرية الفرعونية القديمة بـ "أناس البحر" (sea peoples) -- والذي يُرجح علماء آثار وباحثون أن يكونوا قبائل من جنوب أوروبا بشكل رئيسي، إغريقية وغيرها، وذلك في بداية تشكل الدول-المدينة الإغريقية (city-states) وبداية الحضارة الإغريقية لاحقاً (والتي يُرجح أن تكون إرهابات تشكلها في حدود العام ١٢٠٠ قبل الميلاد)²²—يرجحون أن هذا الغزو والتهديد من قبل هذه القبائل "البداية" هو ما دفع الطرفين، المصري والحيثي، على الأرجح، للإسراع في التوصل إلى اتفاق. وهنا أيضاً، أفعال التواصل المكثف والمفاوضات بين المصريين والحيثيين هو ما قاد إلى التوصل للاتفاق، وكل هذه الأفعال هي أفعال دبلوماسية حتى ولو لم يطلق عليها أصحابها هذا المصطلح.

أحد أبرز الأمثلة على الممارسات الدبلوماسية في أجلى صورها في العالم القديم تمثل في المملكة العربية القديمة قيثار (وأقدم ذكر أركيولوجي وتاريخي لها وصل إلينا حتى الآن يعود للنقوش الآشورية في القرن التاسع قبل الميلاد، وعلى الأرجح أن يكون تاريخ نشأتها قبل ذلك)، وعاصمتها أدوماتو (دومة الجندل حالياً، في منطقة الجوف في شمال المملكة العربية السعودية). كان الخطر الرئيسي الذي يهدد مملكة قيثار يكمن في الغزو الآشوري، كما تشهد على ذلك الحروب والاتفاقات القيديارية-الآشورية التي حفظتها لنا النقوش والأدلة الأركيولوجية²³. دعت المخاطر الآشورية ملك قيثار في حينها، واسمه جندبو، للانضمام إلى تحالف ممالك مجاورة بقيادة ملك مملكة دمشق الآرامية ضد الملك الآشوري سلمنصر الثالث. لكن الحلفاء خسروا المعركة ضد سلمنصر في معركة قرقر عام ٨٥٣ قبل الميلاد، وما كان من الملك الآشوري إلا أن فرض شروطاً قاسية على

قيدار²⁴. وهنا أيضاً، يمكن النظر إلى الصور المختلفة من العمل الدبلوماسي (التفاوض، بناء التحالفات، الوصول لاتفاقيات سلام ... إلخ) بين مملكة قيدار والممالك الآرامية ومملكة آشور في ذلك العصر. وبالرغم من عدم توظيف مصطلح "دبلوماسية" إلا أن أجدادنا العرب القديريين قد مارسوا العمل الدبلوماسي بامتياز قبل ثلاثة آلاف سنة (وهذا الذي كشفت عنه الآثار والبحوث الأركيولوجية حتى الآن، ولربما تكشف لنا المكتشفات الأثرية في المستقبل أكثر من هذا).

وفي القرن السادس قبل الميلاد (أي بعد ثلاثة قرون من الأحداث المشار إليها أعلاه بين أجدادنا القديريين وجيرانهم الآراميين والآشوريين في العالم القديم) نجد ملامح للعمل الدبلوماسي الإغريقي إبان ما يُعرف بالدولة-المدينة في الإغريق. ولم يكن لدى الدولة-المدينة الإغريقية تقاليد دبلوماسية أو تنظيم دبلوماسي واضح، إذ كان معظم تركيز هذه الكيانات السياسية الناشئة ينصب على شؤونها الداخلية. ولهذا، فإن أي شيء يمكن أن نقرنه بالعمل الدبلوماسي في تلك الفترة كان بدائياً جداً وله ارتباط بشكل رئيسي بالجوانب الدينية (كأن تطلب دولة-مدينة المساعدة من أخرى من خلال صياغات ومنطق ديني). وفي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، نجد تطوراً ملحوظاً في الممارسات الدبلوماسية الأساسية بين المُدن-الدولة، مثلاً في المراسلات بين سبارطه وأثينا²⁵.

والأدبيات الغربية التي تتناول نشأة الدبلوماسية تُحيل بداية تطور الدبلوماسية الحديثة إلى بيزنطة وريثة الإغريق. لكن من الأهمية بمكان ملاحظة أن بيزنطة لم تكن واعية بشكل واضح بفكرة ارتباطها بهذا الإرث التاريخي. فالنصوص البيزنطية ذات العلاقة لا توظف فكرة الإرث القديم (من الإغريق) بشكل واضح، ولم تقم بيزنطة بتوظيف فكرة الإرث القديم في سياستها الخارجية، على الأقل حتى القرن الثاني عشر بعد الميلاد. ولذلك تجب مسألة فكرة توظيف الإرث القديم، نشأتها وتطورها، من القرن الثامن وحتى القرن الثاني عشر بعد الميلاد²⁶.

ويشير نيكولا دروكور إلى العلاقة المتوترة بين الروم والإرث الإغريقي من خلال استعراض كتابات وأمثلة متنوعة، مثل كتابات سفير سيف الدولة الحمداني (٩٤٥م-٩٦٧م) حاكم إمارة حلب التابعة إسمياً للخلافة العباسية في بغداد لملك الروم في حينه، واسم سفير سيف الدولة أبو إسحاق. فقد رغب السفير في زيارة معبد إغريقي قديم موجوداً على بعد مسيرة ثلاثة أيام عن القسطنطينية. لكن ملك الروم رفض طلبه بحجة أن هذا المعبد مغلق منذ قرون بسبب تحول الروم للدين المسيحي (الذي يتعارض مع هذه المعابد). فأخذ السفير عليه بالطلب والإلحاح، تارةً بإرسال الخطابات وتارةً أخرى بالطلب مباشرة حين يكون في مجلسه، واستغرق ذلك وقتاً حتى سمح الملك بالزيارة وفتح المعبد. وحين كان المأمون (٨١٣م-٨٣٣م) يرسل السفراء للروم في القسطنطينية وولاتهم في قبرص وأثينا طالباً منهم إرسال المخطوطات الإغريقية للفلاسفة والعلماء القدماء. وكان ملوك الروم وولاتهم يرسلونها وهم مسرورون بظنهم أن تلك العلوم والفلسفة التي كانوا يعتبرونها فاسدة ستفسد إيمان المسلمين

مما يصب في مصلحة بيزنطة. ويتابع دروكور بالقول إن إعادة اكتشاف الرومان لعلاقتهم بالموروث الإغريقي كان على الأرجح الغالب بسبب تأثرهم بالعرب إبان الخلافة العباسية والتي كانت تتمتع بالتفوق على بيزنطة، وإلى محاولة البيزنطيين تقليد النموذج العربي العباسي²⁷ الذي بنى علاقة متميزة مع الموروث الفلسفي والعلمي الإغريقي. وهنا إشارة قوية إلى نظر بيزنطة في ذلك الوقت إلى علاقتها بالموروث الإغريقي والروماني بعد التحول للمسيحية، وإلى دور الحضارة العربية في حفظ هذا الموروث وتنميته والإضافة له، إلى جانب مساهماتها الأصلية في الحضارة الإنسانية.

ومن الأمثلة الفريدة من نوعها في تاريخ الدبلوماسية اتفاقية البقط المعقودة بين دولة الخلافة الراشدة وعاصمتها المدينة المنورة (غرب المملكة العربية السعودية حالياً) في عهد عثمان بن عفان ومملكة النوبة (والتي كانت تقع في المنطقة الممتدة من جنوب أسوان المصرية حتى منطقة علوة السودانية) عام ٦٥٢ م. ففي عام ٦٤٠ م انتزعت دولة الخلافة الراشدة في عهد عمر بن الخطاب مصر من الروم وضمتها للدولة العربية (مؤذنةً ببداية تعريب مصر ولغتها وثقافتها وهويتها تدريجياً في القرون الثلاث الأولى التي تلت الفتح). وقد كانت مملكة النوبة تشكل خطراً استراتيجياً يتمثل في إمكانية التعاون البيزنطي-النوبي ضد المدينة المنورة. وبعد فترة من تولي عثمان بن عفان الخلافة قام بعزل عمرو بن العاص القرشي عن ولاية مصر وولى أخاه من الرضاعة عبدالله بن سعد بن أبي السرح القرشي عليها في عام ٦٤٦ م. قام عبدالله بعقد صلح مع مملكة النوبة، وبُني فيها مسجد، إلا أن النوبيين نقضوا الصلح وهاجموا الحدود الجنوبية للخلافة (ولاية مصر) وقاموا بأعمال تخريب. فما كان من والي مصر القرشي إلا أن سار على رأس جيش كبير أصاب منهم وفرض حصاراً على عاصمتهم دمقلة. ثم طلب الملك النوبي واسمه قليدوروث الصلح فوافقت الخلافة وأبرمت اتفاقية البقط عام ٦٥٢ م. وهذه اتفاقية فريدة من نوعها وتُعد من أطول الاتفاقيات في التاريخ (إن لم تكن الأطول) إذ استمر العمل بها لأكثر من سبعمائة عام. وتضمنت شروطها عدم الاعتداء، وحرية التجارة والحركة لمواطني الدولتين، والمرور الآمن وكذلك حرية العبادة في بلاد النوبة وحفظ حقوق المسلمين ورعاية مسجدهم فيها²⁸.

4. بروز الدبلوماسية كمجال مهني واحترافي

ينسب السرد الغربي السائد فضل تطور الدبلوماسية المهنية والدائمة للدول الغربية، ويتجاهل بشكل متحيز المساهمات المهمة للحضارات الأخرى (مثل الحضارة العربية). لكن التاريخ حفظ لنا شواهد مهمة تقرض مسائلة السردية الغربية، إن لم تكن تنقضها على الجملة.

ففي عهد عثمان ابن عفان (٦٤٤-٦٥٦ م) تم تخصيص ميزانية سنوية من بيت مال الدولة لغرض ضيافة الوفود والسفراء الأجانب القادمين لعاصمة الخلافة، المدينة المنورة، والإنفاق على احتياجاتهم، من لحظة قدومهم وحتى مغادرتهم. وكان عثمان بن عفان أول من نظم مؤتمر جامع في التاريخ العربي والإسلامي (ومن

الأوائل على مستوى التاريخ الإنساني) لكل حكام ولايات الخلافة العربية في عاصمتها، المدينة المنورة، وبحضور الصحابة وكبار رجال الدولة للتباحث في الشؤون الداخلية والخارجية للخلافة²⁹.

وقد عرف العرب الدبلوماسيين المهنيين الذين صرفوا حياتهم كلها للعمل الدبلوماسي. يذكر صاحب كتاب رسل الملوك، الحسين بن محمد المشهور بابن الفراء، قصة ورود رسول الخليفة العباسي المعتصم (٨٣٣م- ٨٤٣م) لملك الروم (والمرجح أنه الإمبراطور ثيوفيلوس، ٨٢٩م-٨٤٢م) الذي دُهِشَ دهشةً كبيرة من حسن هندام رسول المعتصم وعلامات الثراء عليه ومن في صحبته. ولشدة دهشة ملك الروم طفق يسأل الرسول العربي عما يتقاضاه من الخليفة المعتصم، فرد الرسول بأنه يتقاضى هو وولده عشرين ألف درهم في الشهر. فما كان من ملك الروم إلا أن انهال عليه بالأسئلة: هل فتحت لخليفتك فتحاً؟ فقال الرسول لا؛ فسأل الملك: هل أنقذت حياة الخليفة أو ولي عهده ليعرف لك فضلاً عظيماً؟ فأجاب الرسول لا. واستمرت الأسئلة حتى فرغ الملك، فقال رسول المعتصم إن للخليفة خُدامَ في مجالات عديدة، فهناك من انقطع للقضاء فتعليمه وتدريبه وعمله طوال عمره في هذا المجال، وهناك من انقطع للجيش فتدريبه وعمله طوال عمره في هذا المجال، وهناك من انقطع للعمل في سفارات الخليفة وله صفات وخصائص معينة وعمله طوال عمره في هذا المجال. وهم جميعاً يتقاضون رواتب ومكافآت مجزية³⁰. وهذا يتفق مع تطور جهاز الإدارة العامة (الجهاز البيروقراطي) في العهد الأموي ثم توسُّعِه الهائل في العهد العباسي. حتى أن جميع الدول الإسلامية التي أتت بعدها نسخت هذا الجهاز³¹ مقتفيةً أثر الدولتين الأموية والعباسية في هذا المجال (وهذه نقطة يتم تجاهلها عند النظر في تاريخ الحضارة العربية- الإسلامية، لأسباب عديدة من بينها التحيز ضد العربي في الأدبيات الغربية).

ويذكر سيد أمير علي أن السفارات الدائمة كانت موجودة عند العرب، ويستشهد بالسفراء الدائمين بين الدولة العباسية في بغداد والإمارات والممالك الصغيرة المجاورة لها، وأن سفراء هذه الكيانات السياسية كانوا يتخذون من المناطق القريبة من بغداد أماكن للإقامة الدائمة³². وكان للمعرّ بن باديس الصنهاجي (١٠١٦م- ١٠٦٢م)، والذي كان والياً على أفريقيا للفاطميين ثم استقل بالحكم عنهم، وكيلٌ دائمٌ الإقامة في القاهرة يمثله وينقل منه وإليه أمام الخليفة الفاطمي³³.

لكن هذه الممارسات (الدبلوماسيين المهنيين والدبلوماسية الدائمة) لم تكن منتشرة بشكل واسع، ومن غير المعلوم سبب عدم الانتشار لهذه الممارسات، إلا أن أحد العوامل التي قد أرجح أن تكون ذات أثر هو عامل شكل الدولة وشكل الكيانات السياسية السائدة في ذلك الوقت. فلقد كان منتشراً على الساحة الدولية كيانات بعضها أقل من كيان الدولة-القومية كما نعرفها اليوم (مثل الإمارات المكونة من مدينة صغيرة واحدة)، وبعضها في نفس مستواها (مثل الممالك الكبيرة)، وبعضها أعلى من كيان الدولة-القومية (مثل الدولة البابوية). بالإضافة، كانت الكيانات السياسية تعاني من سرعة التحول والتغير والانتقال من مستوى إلى آخر. وهذا قد

يكون له أثر في حساب الجدوى من إنشاء سفارة دبلوماسية دائمة لدى الكيانات ذات السيولة الشكلية العالية. فما يمكن أن أسميه بـ "سيولة شكل الدولة" على الساحة الدولية قد يكون لعب دوراً. وقد نشأت علاقات دبلوماسية، لم تخلوا من المواجهات العسكرية، بين الخلافة العباسية في المشرق والإمبراطورية البيزنطية والخلافة الأموية في الأندلس. والتواصل الدبلوماسي المكثف له شواهد كثيرة، مثلما نرى في الروايات التاريخية في القرن العاشر الميلادي. ومن القرن الثاني عشر فصاعداً، بدأ عدد المهتمين في الغرب بالإرث الإغريقي العلمي والفلسفي بالنمو. وكثرت السفارات الساعية لاستكشاف هذا الإرث وما كتب العرب عنه وأضافوا له وما ابتدعوا من علوم وفكر، حتى أننا لنجد عدداً متنامياً للمترجمين الذين يتحدثون الإغريقية واللاتينية والعربية في الوقت ذاته (trilingualism)، وصولاً لما أسماه بعض الباحثين ببداية "النهضة الثقافية" لأوروبا³⁴، وبالأخص النهضة الإيطالية. و"النهضة" هي ترجمة لمصطلح "إعادة الولادة" الذي يُستخدم في اللغات الأوروبية، في إشارة لإعادة ميلاد اليونان وروما في شكل أوروبا³⁵.

تلا ذلك حراك معرفي وثقافي وسياسي في أوروبا يسمى بعصر النهضة، كما تلاه نشأة ما يُسمى بالدولة-القومية. وعادة ما يتم أخذ العام ١٦٤٨ (وهو عام صلح ويستفاليا)، كعام محوري في مسيرة تطور الدولة-القومية (الدولة-الوطنية). فالحدود الجغرافية والسيادة عليها لحكومة مركزية هي أبرز سمات ذلك الاتفاق³⁶. ومع صعود الدولة-القومية برزت تحولات على المشهد الدولي، تبعها تحولات في الممارسة الدبلوماسية، وأبرزها الانتشار الواسع لممارسة الدبلوماسية الدائمة وكذلك الانتشار الواسع للدبلوماسيين المهنيين، واتساع قائمة الأعراف الدبلوماسية المعمول بها، واتساع حضور وأثر دبلوماسية توازن القوة بين القوى الأوروبية المختلفة. ويمكن المجادلة بأن الانتشار الواسع لشكل "الدولة-الوطنية" أثر في صعود ممارسات وأعراف دبلوماسية مستقرة إلى حدٍ ما بالإضافة إلى انتشار الدبلوماسية الدائمة.

5. الدبلوماسية المعاصرة

بعد هزيمة نابليون بونابارت، الذي توج نفسه إمبراطوراً على فرنسا، في معركة لايبسك على يد التحالف المكون من روسيا وبروسيا والنمسا والسويد في عام ١٨١٣م، ثم هزيمته النهائية في معركة واترلو في ١٨١٥م، انتهت حقبة ما يُسمى في التاريخ الأوروبي بالحروب النابليونية (والتي بدأت في ١٨٠٤م). عُقد مؤتمر فيينا في عاصمة النمسا في عام ١٨١٥م، حيث اتفق المنتصرون على ترتيبات المشهد الأوروبي وإعادة رسم الحدود واقتسام مناطق النفوذ والسلطة، بالإضافة إلى إنشاء دول (مثل مملكة النيدرلاند). ومن ذلك تقسيم دول العالم إلى مستويين: قوى كبرى وقوى "ذات مصالح محدودة" وهو تعبير متلطف للدول الصغيرة الخاضعة لهيمنة الدول الكبرى. وكان المؤتمر بمثابة إطار حديث لمجيء الوفود وتبادل وجهات النظر والتوصل لاتفاقيات بين عدد كبير من الدول. وقد وضع هذا المؤتمر أساس ما عُرف لاحقاً بنظام الدول الأوروبية (the European Order). وامتداداً لهذه النقاشات، عُقد مؤتمر إكس-لا-شابل في عام ١٨١٨م، بهدف استمرار الحديث عن

المواضيع والشؤون ذاتها. واستقر هذا التقليد المتمثل في انعقاد مؤتمرات كبرى لمناقشة القضايا الدولية وطرح أفكار مستحدثة لم تُطرح من قبل بنفس الطريقة وفي نفس السياق، كفكرة إنشاء منظمة دولية ذات مستوى أعلى من مستوى الدولة. وكان هذا في عام ١٩١٩م، بعد الحرب العالمية الأولى، في مؤتمر فيرساي في فرنسا. وهذه فكرة لم تنجح إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وإنشاء منظمة الأمم المتحدة في عام ١٩٤٥م.

وأبرز اتفاق يخص المجال الدبلوماسي هو اتفاق فيينا عام ١٩٦١م. وسواءً نظرنا إلى مؤتمر فيينا الأول أو إكس-لا-شابل أو اتفاقية فيينا لعام ١٩٦١م، فنحن أمام تبلور نظام دبلوماسي مكون من ثلاثة عناصر: قائمة أعراف تتمتع بشرعية واسعة على الساحة الدولية، قانون دبلوماسي دولي، ومؤسسات دولية لها شرعية وصلاحيات الإشراف على احترام هذه الأعراف وهذا القانون³⁷. وإلى جانب الدبلوماسية الثنائية (بين دولتين)، نشأ لدينا الدبلوماسية متعددة الأطراف وتطورت بشكل أصبح ينافس الدبلوماسية الثنائية.

ثالثاً: التحديات الناجمة عن التغير المستمر

عند النظر في مسألة الدبلوماسية، يجب التطرق إلى أن التحولات المستمرة تفرض الحاجة إلى العمل على التكيف مع التحولات، سواءً من حيث الممارسة والتطبيق أو من حيث التأطير النظري. ولذلك تلاحق عمليات التكيف، بشكل مستمر، حالات التحول والتغير. وهذا يجعل محاولات الوصف والمعالجة النظرية للتحولات مهمة صعبة. كل هذا يقود إلى ضعف التأطير النظري للدبلوماسية من جهة، وإلى خلق (أو توسيع) الفجوة بين الإطار النظري للدبلوماسية والممارسات العملية من جهة أخرى.

1. متابعة التغير المستمر والتكيف معه

تشهد البيئة الدولية تغيراً مستمراً، وهو دائماً يقود إلى تحولات في شكل ومواضيع الدبلوماسية، وهذا يفرض على المشتغلين بالعمل الدبلوماسي تحديات عديدة.

تحولات المشهد الدولي، مثل صعود العولمة على الساحة الدولية والتي أحدثت ثورة في المواصلات وأدوات الاتصال، مثلاً، قاد إلى بروز أنواع جديدة من الدبلوماسية لم تكن موجودة من قبل، أو لم تكن تمارس على نطاق واسع من قبل. نشأت وتوسعت الدبلوماسية المكوكية (shuttle diplomacy)، والتي تعني انتقال الدبلوماسي، أو فريق من الدبلوماسيين، بشكل مستمر ومكثف بين الأطراف المعنية، وبين مدن عديدة، في فترة زمنية قصيرة، لتحقيق أهداف معينة. وبرزت الدبلوماسية السرية، والتي تُسمى أحياناً بدبلوماسية الأبواب الخلفية (secret diplomacy or backdoor diplomacy)، في ظروف معينة. فعلى سبيل المثال، بعض الدول تعلن أنها لا تتفاوض مع "الإرهابيين"، مثل المملكة المتحدة والجيش الجمهوري الأيرلندي (١٩٦٩م-٢٠٠٥م)، لكن لندن كانت تبقي على قناة خلفية للتواصل معه. وظهر ما يُسمى بالدبلوماسية الموازية (para-diplomacy)، والتي تعني الأنشطة الدبلوماسية لكيانات فرعية داخل كيان الدولة (مثل الأعمال الدبلوماسية لإقليم كردستان العراق مع دول إقليمية كتركيا وإيران أو من وراء الإقليم مثل الصين والولايات المتحدة

الأمريكية). وبرزت دبلوماسية "مذياع الحشود" (diplomacy megaphone)، وتعني التصريحات النارية التي يطلقها الزعماء بهدف تهيئة الأرضية لوضع تفاوضي أفضل مع تلك الدول من ناحية وكذلك لأغراض سياسية داخلية. ومثال ذلك تصريحات ترمب النارية ضد الحلفاء الأوروبيين بغرض الضغط عليهم وكذلك الفوز بإعجاب بعض القواعد الانتخابية التي تجذبها صورة أمريكا القوية والحازمة والقادرة على فرض احترامها على الجميع. وهناك دبلوماسية المسار الثاني (track 2 diplomacy)، وهي تشير إلى صعود دور المنظمات غير الحكومية وغير الربحية، مثل دور الفكر ومراكز الأبحاث والمؤسسات الخيرية، بالإضافة إلى الشركات الاستشارية، وجميعها أضحت تلعب أدواراً دبلوماسية متعددة. كما برزت دبلوماسية المفاوضات وحل النزاعات (conflict resolution diplomacy)، والتي تشير إلى جهود الوساطة في النزاعات بوصف الجهد ذاته أداة في يد الدولة التي تقوم به، تكسب منه رصيذاً معنوياً ومادياً وتوظفه لخدمة أهداف سياستها الخارجية على الساحة الدولية.

وإلى جانب التحولات الكبيرة والمستمرة في أشكال وأنواع الدبلوماسية، يوجد تحولات مهمة على مستوى المواضيع الدبلوماسية. ففي السابق، كانت مواضيع الحدود والأمن وتوازن القوى وبناء التحالفات، على سبيل المثال، هي المواضيع الرئيسية التي يشغل بها الدبلوماسيون. لكن مع التحولات التي شهدتها الساحة الدولية، برزت مواضيع أخرى وأصبحت تنافس المواضيع التقليدية. برزت البيئة والتغير المناخي، وحقوق الإنسان، والإرهاب، والجريمة المنظمة العابرة للحدود، والأزمات المالية العالمية، والجوائح الطبية العالمية، والذكاء الاصطناعي، والأمن السيبراني.

التحولات على مستوى شكل الدبلوماسية وعلى مستوى مواضيعها خلق تحديات كبيرة. أبرز هذه التحديات هو فهم الموظف الدبلوماسي لهذه التحولات، وتوظيف هذا الفهم لتحقيق أداء دبلوماسي احترافي في التعاطي مع التحولات من جهة، وتحقيق أهداف العمل الدبلوماسي من جهة ثانية. بالإضافة، أصبح التعليم والتدريب وكذلك حوكمة العمل الدبلوماسي تشكل تحديات تواجه وزارات الخارجية الساعية لامتلاك كادر دبلوماسي محترف وقادر على النهوض بالعمل الدبلوماسي. والتعليم والتدريب والحوكمة كلها داخلية في سياق مع التحولات، فكلما تأقلمت نسبياً مع قائمة تحولات استجد غيرها، فلا تنتهي من سباق حتى تدخل غيره. وهذا بالتحديد هو ما خلق الحاجة للتحديث المستمر والتدريب المستمر.

وفي المحصلة، أصبحت اليد العاملة الدبلوماسية ذات الكفاءة والتأهيل شحيحة التوفر لسببين رئيسيين: الأول هو ندرة الكفاءات المؤهلة ذات الخبرة والاستعداد؛ والثاني هو تحدي التدريب والتعلم المستمر بغرض التكيف مع التحولات. فما أن ينتهي تدريبها وتُصقل خبراتها حتى تستجد قائمة مهارات ومعارف عليهم أن يشرعوا فوراً في تعلمها. وهو ما يمكن أن أسميه بـ ("المهارات القلقة" anxious skills). وهذا قد يدفع الموظف الدبلوماسي إلى التركيز على جوانب أخرى (غير بناء مهاراته ورفع مستوى كفاءته ومعارفه وثقافته ومتابعة التحولات والتكيف معها) مثل التركيز على الجوانب الإدارية، كاستقبال خطاب والرد عليه، أو إدارة النقاشات في

اجتماع، أو إدارة التنافس مثل تأمين نصيبه من المزايا المادية والمعنوية. والتقدم الذي يحرزه في هذه الجوانب قد يقود الموظف الدبلوماسي إلى شعور بتحقيق التميز في العمل الدبلوماسي والتطور، بشكل يعفيه من العمل على المهارات الضرورية للعمل الدبلوماسي (والتي هي مصدر قلق دائم)، وهو ما يمكن أن أسميه بـ ("المسكنات المهنية" professional painkillers).

ودخلت الدول في سباقٍ مع الزمن للتكيف مع كل هذه التحولات ومواجهة التحديات الناجمة عنها. ومن ذلك التركيز على التدريب المستمر، واستحداث أنظمة لإنشاء بيئة مناسبة للتعاون بين الأجهزة المختلفة في الدولة وكذلك لتأطير عمل مؤسسات المجتمع المدني. وقامت دول عديدة بتحديث استراتيجيات التوظيف والاستقطاب بما يخدم مواكبة وزارات خارجيتها للتحولات. وتم استحداث أقسام إدارات في وزارات الخارجية تُعنى بشؤون دور الفكر والإعلام الجديد ... إلخ. وأصبحت الحكومات تولي المؤتمرات الدولية والمنديات اهتماماً وتركيزاً أكبر وتسعى بشكل حثيث للمشاركة فيها ومحاولة التأثير في الآراء والأفكار والنقاشات والأشخاص بما يخدم مصالحها.

كل هذه التحولات والتداخلات بين السياسة والأمن والإعلام والتقنية والدبلوماسية قادت إلى انفتاح مجال الدراسات الدبلوماسية على مقاربات متعددة التخصصات (multidisciplinary) مع الجغرافيا السياسية، والدراسات الرقمية، والدراسات البصرية، من بين تخصصات أخرى عديدة³⁸.

2. الأزمة والتحول في الدبلوماسية

تجادل المدرسة الإنجليزية في العلاقات الدولية بوجود فرق بين مفهومي "النظام الدولي" و"المجتمع الدولي". فالنظام الدولي يشير إلى مجموعة من الدول في الساحة الدولية والتي تسعى إلى تحقيق أهدافها ومصالحها وفق ما لديها من أدوات (منطق الدولة: *raison d'état*). والمجتمع الدولي يشير إلى ذات الأمر مع وجود فرق يتمثل في اتفاق هذه الدول على مجموعة من الأعراف والقواعد المنظمة لسلوك الدول (منطق النظام: *raison de système*). وما يحفز هذا الاتفاق هو إدراك هذه الدول أن من مصلحتها أن "يستمر النظام في العمل"³⁹. وعدم الاتفاق على هذه الأعراف والقواعد من شأنه أن يعرض سير عمل النظام لخطر الانهيار مما يجلب معه كلفة عالية على هذه الدول وتصبح مساعيها لتحقيق مصالحها أكثر صعوبة وكلفة. ويشير هيدلي بل إلى خمس مؤسسات تحافظ على استمرار عمل المجتمع الدولي هي: توازن القوى، القانون الدولي، الحرب، القوى العظمى، والدبلوماسية⁴⁰.

والدبلوماسية كمؤسسة تعمل على الحفاظ على استمرار هذا النظام في العمل، بمعنى أنها أداة لحفظ الاستقرار. ولهذا السبب نشأت ونمت عدة ممارسات دبلوماسية لتحقيق هذا الغرض: العمل على استقرار نظام العمل. الإطار الزمني الممتد لهذا الغرض ساهم في إعطاء الممارسات الدبلوماسية المرتبطة بتحقيقه مستوى معين من الاستقرار. هكذا نشأ لدينا ممارسات دبلوماسية "مستقرة".

في المقابل، التحول في الممارسات الدبلوماسية مرتبط بالأزمات، مثل حالة الحرب أو الكساد الاقتصادي، كما يقول بعض الخبراء⁴¹. فالأزمة تُحدثُ صدمة للممارسات المعتادة وتعيق استمرار العمل بها. فحين تحدث الأزمة، لا يمكن استمرار العمل وكأن شيئاً لم يحدث. وهي تخلق الحاجة للتفكير والإبداع لإنتاج الحلول وابتكار أدوات وطرق جديدة للتعامل مع التحديات التي تنتجها الأزمة. بهذا الشكل، التحول في الممارسات الدبلوماسية هو نتيجة لأسباب عديدة من أهمها حدوث الأزمة.

بالإضافة، التحول في الممارسات الدبلوماسية مرتبط بشخص الدبلوماسي الذي يمارس العمل الدبلوماسي ويؤثر فيه⁴². وقد يكون الممارس للعمل الدبلوماسي على علم بما يجب عليه فعله، لكنه لا يعرف لماذا يجب عليه فعله. هو فقط يعرف أنه يجب عليه فعله، دون أن يفهم المنطق خلف وجوب الفعل. ولا يعرف أيضاً كيف يقوم بوصفٍ منهجي ومنضبط للممارسة التي يقوم هو نفسه بها. فلا يمكنه مثلاً كتابة نصٍ منضبط منهجياً عن الممارسات الدبلوماسية التي يقوم بها، بحيث يمكن لدبلوماسي شاب أن يقرأ هذا النص ويتعلم منه ما يجب عليه فعله⁴³.

3. الفجوة بين النظرية والتطبيق

المحاولات المستمرة التي تقوم بها الدول ووزارات الخارجية والدبلوماسيون والمبادرات والمشاريع بغرض التكيف مع التحولات السياسية والعسكرية، يجعل الدبلوماسية دائمة "التلون"⁴⁴. وبسبب "تلون" الدبلوماسية وتقلبات "أهوائها" تستبعد نظريات العلاقات الدولية الدبلوماسية من مقولاتها العامة⁴⁵. ومعاناة الدبلوماسية من الإهمال النظري أتى لصالح التركيز النظري والتطبيقي على البحث في سياسات القوة وتوازنات القوى⁴⁶. يرى الكثير من المختصين في دراسة الدبلوماسية أن حقل العلاقات الدولية بشكل عام لا يعطي الدبلوماسية ما تستحق من البحث والاهتمام⁴⁷. ولذلك، كانت ولا تزال الدبلوماسية عصية على التأطير النظري⁴⁸. والجسر الذي كان بإمكانه الربط بين الإطار النظري للدبلوماسية والممارسات العملية شبه مفقود، وهو مكون من: "المقارنات المنضبطة، والتفاسير الشاملة، والرؤى المتراكمة"⁴⁹. فبسبب التحولات الهائلة التي مرت ولا تزال تمر بها الدبلوماسية ليس من الممكن الوصول لمقولات عامة يمكن أن تشكل إطاراً نظرياً يسترشد به الممارس للعمل الدبلوماسي، حسب تحليل باري ستايمر. وأصبحت الأطروحات النظرية، المفتقرة لمقولات عامة يمكن التعويل عليها، غير ذات جدوى للممارس⁵⁰.

في المحصلة، لدينا مسألتان: الأولى هي التلون المستمر للدبلوماسية، والثانية هي ضعف التأطير النظري. هكذا أصبحت الممارسة العملية للدبلوماسية (في إطار محاولات التكيف مع تحولات البيئة الدولية وفي ظل ضعف التأطير النظري) هي أقرب للارتجال في سياقات غير رسمية، وبعيدة عن القنوات المعتمدة،

وتخضع لنزعات وأهواء السلوك البشري غير العقلاني، مما يزيد من مستوى عدم اليقين وغياب الوضوح وضعف القدرة على التنبؤ. وهذا يختلف عن الوعود التي نجدها في أدبيات حقل الدراسات الدبلوماسية والتي تتحدث عن العقلانية، والعمليات المؤسسية المنضوية في بنية محددة من الأطر والقواعد والأعراف، مع ما يقود إليه كل ما سبق من مستوى من الوضوح والقدرة على التنبؤ. هذه الممارسات تقوم هي ذاتها بتعقيد مهمة المختصين والخبراء الأكاديميين الساعين للمساهمة في تطوير الأطر النظرية للدبلوماسية. ولذلك كله، يوجد فجوة بين الأطروحات النظرية والممارسات الدبلوماسية دائمة التلون. وفي المحصلة، لا يجد الممارس للعمل الدبلوماسي الكثير من العون والفائدة في الكتابات الأكاديمية عن الدبلوماسية.

الخاتمة

سعت هذه الدراسة إلى تقديم نبذة مختصرة لأبرز تعاريف الدبلوماسية، والتي استندت إلى ما يقوم به الدبلوماسي لتعريف مفهوم الدبلوماسية. كما طرح هذا البحث تعريفاً مقترحاً للدبلوماسية وتوصيفاً لثلاث مستويات من الممارسات الدبلوماسية لدى الدول: الطابع الدبلوماسي، والثقافة الدبلوماسية، والمدرسة الدبلوماسية. واستعرضت الدراسة تاريخ النشأة وأهم التحولات التي قادت إلى بروز الدبلوماسية الدائمة وكذلك الدبلوماسية متعددة الأطراف. وإلى جانب وجهة النظر الغربية حول تاريخ نشأة وتطور الدبلوماسية، استعرضت هذه المقالة جوانب تاريخية من وجهة نظر غير غربية، من خلال الاستشهاد بأحداث تاريخية من العالم القديم والتطرق إلى بعض الممارسات الدبلوماسية العربية. كما تطرقت الورقة إلى بعض التحديات الناجمة عن التحولات المستمرة لمفهوم وممارسة الدبلوماسية، ومن أبرزها تحدي التكيف مع التحولات، وكذلك الفجوة بين النظرية والتطبيق في الدبلوماسية. ويوصي هذا البحث بضرورة القيام بمراجعة دورية لمفهوم وممارسات الدبلوماسية، بما في ذلك تتبع الظواهر والمستجدات في مفهوم وممارسة الدبلوماسية.

الهوامش:

¹ سهيل الفتلاوي، تطور الدبلوماسية عند العرب، دار القادسية للطباعة، بغداد، 1984، ص 3.

² Ibid

³ Costas M. Constantinou, Pauline Kerr, et Paul Sharp, eds., *The SAGE Handbook of Diplomacy*, London: SAGE Publications Ltd, 2016, p. 31.

⁴ Geoff R. Berridge, *Diplomacy: Theory and Practice*, 5th ed., Hampshire: Palgrave Macmillan, 2015, p. 1.

⁵ علي حسين الشامي، الدبلوماسية: نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية، طبعة 3، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 2007، ص.ص. 34-35.

⁶ Ibid

⁷ خطبة صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، ولي العهد رئيس مجلس الوزراء في المملكة العربية السعودية، في افتتاح أعمال السنة الأولى من الدورة التاسعة لمجلس الشورى، في ١٨ سبتمبر ٢٠٢٤م.

⁸ Geoff R. Berridge, *Diplomacy: Theory and Practice*, op. cit., p. 1.

⁹ Jack Spence, Claire Yorke, et Alastair Masser, eds., *A New Theory and Practice of Diplomacy: New Perspectives on Diplomacy*, London: I.B. Tauris, 2021, pp. 1-2.

¹⁰ Jeremy Black, *A History of Diplomacy*, London: Reaktion Books, 2010, p. 12.

¹¹ Louis J. Nigro. 2012. "Theory and Practice of Modern Diplomacy: Origins and Development to 1914." Research Report., ed. Theory of War And Strategy, Pennsylvania: U.S. Army War College Strategic Studies Institute.

¹² Jeremy Black, *A History of Diplomacy*, op. cit., p. 12.

¹³ Geoff R. Berridge et Alan James, *A Dictionary of Diplomacy*, Hampshire: Palgrave, 2003, pp. 69-70.

¹⁴ Jeremy Black, *A History of Diplomacy*, op. cit., p. 12.

¹⁵ علي حسين الشامي، الدبلوماسية: نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية، مرجع سبق ذكره ، ص 36.

¹⁶ Ian Hurd, "Law and the Practice of Diplomacy", *International Journal*, Vol. 66, No. 3, 2011, pp. 581-96.

¹⁷ Costas M Constantinou et al., "Thinking with Diplomacy: within and beyond Practice Theory", *International Political Sociology*, Vol. 15, No. 4, 2021, pp. 559-87.

¹⁸ للمزيد حول تعريف الدولة-الوطنية وتاريخ نشأتها، انظر :

Walter C Opello et Stephen J Rosow, *The Nation-State and Global Order: A Historical Introduction to Contemporary Politics*, London: Lynne Rienner Publishers, 2004.

¹⁹ هذه المسألة تم التطرق إليها من قبل باحثين كثر. انظر مثلاً:

Amos S. Hershey, "The History of International Relations During Antiquity and the Middle Ages", *The American Journal of International Law*, Vol. 5, No. 4, 1911, pp. 901-33.

²⁰ أنظر :

سهيل الفتلاوي، تطور الدبلوماسية عند العرب، مرجع سبق ذكره ، ص 17.

وانظر أيضاً:

Peter Sand, "Environmental Dispute Resolution 4,500 Years Ago: The Case of Lagash v Umma", *Yearbook of International Environmental Law*, Vol. 30, 2020, pp. 1-6.

²¹ للمزيد حول معركة قادش، انظر :

Gregory McMahon, "The History of the Hittites", *The Biblical Archaeologist*, Vol. 52, No. 2/3, 1989, pp. 62-77; Hans Goedicke, "Considerations on the Battle of Kadesh", *The Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. 52, 1966, pp. 71-80.

²² للمزيد حول "أناس البحر"، انظر :

Carlos J. Moreu, "The Sea Peoples and the Historical Background of the Trojan War", *Mediterranean Archaeology*, Vol. 16, 2003, pp. 107-24.

²³ انظر على سبيل المثال اتفاقية قيثار مع آشور إبان حكم آشور-بنيبال:

P. Buis, "Un traité d'Assurbanipal", *Vetus Testamentum*, Vol. 28, No. 4, 1978, pp. 469-72.

²⁴ للمزيد عن هذا، انظر :

Daniel D. Luckenbill, *Historical Records of Assyria: from the Earliest Times to Sargon*, vol. 1, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago: The University of Chicago Press, 1926, p. 223.

²⁵ F. E. Adcock, "The Development of Ancient Greek Diplomacy", *L'Antiquité Classique*, Vol. 17, 1948, pp. 1-12.

²⁶ Nicolas Drocourt, "La diplomatie médio-byzantine et l'Antiquité", *Anabases*, No. 7, 2008, pp. 57-87.

²⁷ Ibid.

²⁸ محمود الروبضي، "بلاد النوبة واتفاقية البقظ في الإسلام"، حوليات آداب عين شمس، 2006، ص.ص. 187-216.

²⁹ سهيل الفتلاوي، الدبلوماسية الإسلامية: دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 2006، ص

214.

³⁰ الحسين بن محمد ابن الفراء، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحرير صلاح الدين المنجد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1947 [1392]، ص.ص. 32-33؛ صلاح الدين المنجد، النظم الدبلوماسية في الإسلام، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983، ص 20.

³¹ Syed Ameer Ali, *A Short History of Saracens*, Suffolk: Richard Clay and Company, Ltd., 1927, p. 409.

³² *Ibid.*, pp. 406-09.

³³ صلاح الدين المنجد، النظم الدبلوماسية في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص 68.

³⁴ Nicolas Drocourt, "La diplomatie médio-byzantine et l'Antiquité", *art. cit.*, pp. 57-87.

³⁵ Louis J. Nigro. "Theory and Practice of Modern Diplomacy: Origins and Development to 1914." Research Report, *op. cit.*, 179-92 p.

³⁶ *Ibid.*

³⁷ للمزيد أنظر:

Jeremy Black, *A History of Diplomacy*, *op. cit.*; Henry Kissinger, *Diplomacy*, New York: Simon & Schuster, 1994.

³⁸ Costas M Constantinou et al., "Thinking with Diplomacy: within and beyond Practice Theory", *art. cit.*, pp. 559-87.

³⁹ August Danielson, *The Resilience of Diplomacy: Adaptation and Continuity of Diplomatic Practice in Crises*, PhD Thesis, Anna Michalski et Ludvig Norman (dir.), Faculty of Social Sciences, Uppsala University, Uppsala, 2023, p. 24.

⁴⁰ Hedley Bull, *The Anarchical Society: A Study of Order in World Politics*, 3rd ed., Hampshire: Palgrave, 2002, pp. 97-121.

⁴¹ August Danielson, *The Resilience of Diplomacy: Adaptation and Continuity of Diplomatic Practice in Crises*, PhD Thesis, *op. cit.*, pp. 26-34.

⁴² Costas M Constantinou et al., "Thinking with Diplomacy: within and beyond Practice Theory", *art. cit.*, pp. 559-87.

⁴³ August Danielson, *The Resilience of Diplomacy: Adaptation and Continuity of Diplomatic Practice in Crises*, PhD Thesis, *op. cit.*, pp. 26-34.

⁴⁴ Barry H. Steiner, "Diplomacy and International Theory", *Review of International Studies*, Vol. 30, No. 4, 2004, pp. 493-509.

⁴⁵ *Ibid.*

⁴⁶ James Der Derian, "Mediating Estrangement: A Theory for Diplomacy", *Review of International Studies*, Vol. 13, No. 2, 1987, pp. 91-110.

⁴⁷ Costas M. Constantinou, Pauline Kerr, et Paul Sharp, eds., *The SAGE Handbook of Diplomacy*, *op. cit.*, p. 16.

⁴⁸ James Der Derian, "Mediating Estrangement: A Theory for Diplomacy", *art. cit.*, pp. 91-110.

⁴⁹ Barry H. Steiner, "Diplomacy and International Theory", *art. cit.*, pp. 493-509.

⁵⁰ *Ibid.*